



مجلة العلوم السياسية

اسم المقال: عرض الاطاريين والرسائل(قراءة في كتاب ذاكرة الدولة : السياسة والتاريخ والهوية الجمعية في العراق الحديث)

اسم الكاتب: علاء عبد الرزاق

رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/library/49>

تاريخ الاسترداد: 2025/04/19 21:35 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.

لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية – Encyclopedia Political – يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية – Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام

<https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة العلوم السياسية جامعة بغداد ورفده في مكتبة الموسوعة السياسية مستوفياً
شروط الملكية الفكرية ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي يتضمن المقال تحتها.



قراء في كتاب (ذاكرة الدول: السياسة والتاريخ
والهوية الجمعية في العراق الحديث^(١))

٩٣

عرض
علاء عبد الرزاق

الحرب العراقية الإيرانية ١٩٨٠-١٩٨٨ وكذلك حرب الخليج الثانية خلال عام ١٩٩١ وما تلاها من انفراط شعبية ومجاز ارتکبها النظام بحق مواطنيه من الشيعة والاكواد، الا دليلاً على الكيفية التي استخدمت بها الذاكرة التاريخية للنظام في مواجهة اعدائه، ولم يكن استمرار النظام البعثي في حكم بلد ذو ثروات نفطية هائلة وارث تاريخي غني وقاعدة زراعية متقدمة من التعليم او وصل الى مديات متقدمة من التعليم اي لديه كل الخصائص الالزامية لإقامة نظام ديمقراطي تعددي، اقول مع كل هذه الشخصيات، فقد تمكّن النظام البعثي من حكم البلد بأسلوب ديكتاتوري فردي عمد الى احتكار كافة موارد وثروات البلد خدمة لاهدافه الخاصة. ولعل السؤال الاساسي الذي يمكن ان يطرح في هذا المجال هو الكيفية التي يتم بها تبيّان العلاقة بين تشكيل الدولة القومية الحديثة وبين استخدام او حتى اختلاق ذاكرة تاريخية جمعية لها وكيف عمدت

بعض هذا الكتاب بمثابة دراسة اجتماعية سياسية لتأثير الثروات النفطية في البلدان التي شهدت تفجر ثروة البترول منذ العقد الاول من القرن العشرين مثل العراق والكيفية التي تم بها استخدام عوائد هذه الثروة لبناء هوية جمعية لمواطنين ينتمون الى العراق واتجاهات دينية مختلفة من خلال صياغة جديدة لتاريخ البلد ولقد كان العراق، بحق، البلد الاكثر استخداماً لعوائده المالية من اجل تسييد هوية جديدة كانت تقوم على استبعاد وتهبيش فئات مهمة واساسية في المجتمع العراقي مثل الشيعة والاكراد وهو الامر الذي ادخل العراق في اتون صراعات دائمة طيلة العقود الماضية. ولم يكن مشروع اعادة كتاب التاريخ والذى ترأسه صدام حسين شخصياً الا جزءاً بسيطاً من محاولات احياء او ايجاد ذاكرة تاريخية جمعية للمواطن العراقي تكون جديدة ومشربة بتعاليم ورثى النظام القائم. ولقد كانت الحروب التي خاضها النظام ابتداءً من

^(١) المؤلف هو اريك ديفيس، استاذ العلوم السياسية ومدير مركز دراسات الشرق الاوسط في جامعة روتردام الامريكية، مطبعة جامعة كاليفورنيا، ٢٠٠٥.

واستخدام هذه الاساطير من اجل تعبيئة الجهود نحو خلق هوية متماسكة ومتراقبة يمكنها ان تشكل عاملًا مساعدًا للنظام في تحقيق مديات غير قليلة من هيمنته على اغلب مكونات الشعب.

ولذا ما استطاعت الدولة الابهاء بالماضي الذهبي الثلث الذي كان يعيشها شعبها والاشارة الى رغبة النظام القائم بالعودة الى مأثر هذا الماضي فهي تسعى، وبالتالي، الى تعبيئة جهود المجتمع لصالح اهداف وطلعات النظام القائم وتصبح بذلك المؤسسات الثقافية والتعليمية بمثابة (مصالح) لانتاج ثقافة تبريرية لتجاهات الحكم واظهار اخطائه الفادحة وكأنها منجزات يفترض ان يثاب عليها من لدن الشعب.

ولعل الهدف الاساسي الذي تتطلّق منه هذه الدراسة هو تبيان الطرق والاساليب التي استخدمت في العراق المعاصر من اجل بناء الدولة على اساس الذاكرة التاريخية الجماعية والكيفية التي استخدمت بها هذه الذاكرة من اجل تبرير نظام الحكم البعثي. ولا بد من التأكيد ان عملية بناء الدولة في العراق هي عملية مستمرة ولما تنتهي بعد ذلك لعدم اتفاق المواطنين على الشكل الامثل للنظام السياسي الذي يفترض ان يقام ويقوى قبولاً لدى مختلف مكونات الشعب العراقي القومية والمذهبية. ولقد بُرِزَ منذ نشوء الحكم الوطني في العراق في العقد الثالث من

هذه الذاكرة التاريخية الى تبرير نظام حكم شمولي وديكتاتوري متسلط كالنظام العراقي وكيف قادت الى انهياره فيما بعد في ٢٠٠٣.

ولذا ما حاولنا الاجابة على التساؤل الخاص بالعلاقة بين بناء السلطة والذاكرة التاريخية وما الذي يمكن تعلمها من التجارب التي تقوم بها دولة من اجل استخلاص مشروع سياسي من ذكرتها الجمعية والتاريخية. هناك حقيقة تتعلق، في الواقع الامر، بعدد كبير من الدول العربية تتجلى بداعمها هذه الدول بانتمائهما الى حضارات قديمة رغم ان واقعها السياسي يدل على نشوئها خلال العقود الرابع او الخامس من القرن العشرين، وببعضها انشئ بارادة من الدول الاستعمارية السابقة التي احتلتها.

ان مثل هذه الحقيقة تدفع صناع القرار والنخب السياسية في هذه البلدان للعمل على خلق ذاكرة تاريخية جديدة او تكون مستمدّة من اساطير تاريخية قديمة من اجل تعزيز التضامن الجماعي داخل البلاد، من اجل اعطاء شرعية مصطنعة لتبرير حكمها والاستمرار بهذا الحكم، لقد ادرك صدام حسين هذه الحقيقة، وأكد في اكثـر من مجال، على ضرورة أن يؤمن الشباب، ومن هم في عداد النساء، بالتصورات التي يبتليها النظام عن الحياة والمجتمع والثقافة والفكر والدين ومختلف جوانب الحياة الأخرى، فالدولة التي تكون قادرة على استخلاص اساطير تاريخية من ماضيها

السلطة لاليات وادوات تترافق مع الايديولوجية، لأن استخدام وصف الهيمنة يدل على استخدام السلطة لاليات وادوات تترافق مع اساليب القسر والاكراه من اجل اجبار غالبية الشعب على تقبل طروحاتها الفكرية والسياسية وتصوراتها الخاص بمجمل شعوب الحياة، بحيث تبدو هذه الطروحات بمنأىة المسلمين التي لا تقبل أي نقاش او جدل، بمعنى ان السلطة السياسية تعمد الى ايجاد هيمنة فكرية واخلاقية تترافق وتتكامل مع هيمنتها على الجوانب المادية للحياة لشكل ومضمون السلطة.

ان هدف الهيمنة سوف يغدو، بكل الاحوال، تقيد اي نزعه فكرية يكون من شأنها تقويض الاساطير التي تقوم على اساسها ايديولوجية الدولة، وسوف يقوم بهذه المهمة الافراد الذين يعرفون باسم المتفقين العضويين اي المنتسبين الى الجهاز الحاكم والذين يبررون سلوك النظام ويدافعون بشكل تلقائي عن توجهاته وسياساته العامة.

وإذا ما عدنا الى الانموذج العراقي فسوف نلاحظ انه كانت هناك رغبة حثيثة من لدن ما يمكن تسميته بالبعث التكريتي ولاسيما ذلك النجاح الذي هيمن على السلطة بعد ١٩٦٨ على اعادة كتابة الذاكرة التاريخية العراقية وتسييسها بالشكل الذي يخدم اهداف وتوجهات النظام. ولقد اتاحت العائدات الكبيرة للنفط ولاسيما بعد منتصف السبعينيات قيام السلطة باجلحة

القرن العشرين انماذجين للهوية العراقية: الانموذج الاول الذي يركز على الشخصية والهوية الوطنية العراقية والانموذج الآخر الذي كانت له الغلبة وكان مسؤولاً عن الدمار الذي لحق بالعراق، وهو الانموذج القومي العربي والذي يدعو الى قيام وحدة عربية شاملة، وان الوطن العربي، هو من اشمل هو الوطن العربي. وقد عمد هذا التيار الاخير الى اختزال التاريخ الخاص بالعراق الى التاريخ الخاص بالامة العربية الاسلامية على الرغم من ان هذا التاريخ لا يشكل الا تاريخاً لجزء وليس لكل الشعب العراقي في حين ان العراق يضم مكونات واثنيات ومذاهب اخرى قد لا تتوافق مع مكونات او على الاقل الاتجاهات الرئيسية في التاريخ العربي الاسلامي.

لقد قامت هذه الدراما على استخدام المنهج الذي وضعه انطوني غرامشي بشأن الدور والتأثير الذي تمارسه النخب السياسية والثقافية في الهيمنة على اغلبية الشعب من خلال تعليم انماذجها السياسي والثقافي، وكذلك الاساطير التاريخية التي تؤمن بها بحيث تكون اداة من ادوات الهيمنة والاستحواذ على السلطة لاطول فترة ممكنة. ولا تشکل الهيمنة، لدى غرامشي، معنى متراوحاً مع الايديولوجية. ذلك ان استخدام وصف الهيمنة يدل على استخدام

الحاضر. كما ارسل النظام رسالة واضحة وصرخة تجاه الشيعة تجلت بضرورة تخليلهم بشكل كامل عن ارثهم الثقافي والديني من اجل ان يتمتعوا بالامتيازات الناجمة عن العمل مع الدولة وفي اطار مؤسساتها. وبالفعل كان الشيعة الذين تخلوا عن أي صلة بعيرائهم الديني والتقافي قد حصلوا على نوع من المزايا والمناصب السياسية لم تكن لتترقى في كل الاحوال الى الدرجة التي توالي حجم ما تنازلوا عنه.

ان تسييس الذاكرة التاريخية يمكن ان يفهم من خلال جملة من المرتكزات، منها القبول وتحديد جملة من الاهداف الخاصة بعملية التسييس هذه. ولعل شرط القبول والرضاء بعملية ابراز ذاكرة تاريخية جديدة هو من النقاط الحساسة التي شكلت واحدة من العوامل الفارقة والمهمة في التاريخ الحديث والمعاصر للعراق، اذ كان حجم الفوارق والاختلاف بين مكونات الشعب العراقي من السعة بحيث ترك مشاكل معقدة بدء، في بعض الاحيان، غير قابلة للحل فضلا عن ان الحلول التي تسم اتباعها لمحاولة ظمس الاختلافات كانت، بعد ذاتها، مشاكل جديدة اضيق الى سلسلة المشاكل التي يعاني منها المشهد السياسي العراقي. ولقد تم خفض عملية تشكيل الدولة في العراق الحديث، في العقد الثالث من القرن العشرين، عن بروز نخب متقدمة حاولت ابراز ذاكرة جمعية

الثقافة العراقية واعادة تفسير المنطلقات الفكرية والحضارية للشعب العراقي بالشكل الذي يمكن من خلاله تبرير ايديولوجية اليمونة الفتوية للنظام القائم. وقد بنيت الايديولوجية التي استندت على اعادة كتابة الذاكرة التاريخية العراقية على الایمان بوجود عصر ذهبي للحضارة العربية الاسلامية وكان المفترض لهذه الحضارة هو العراق، بمعنى التركيز على الحقبة العباسية من التاريخ العربي - الاسلامي والتي امتدت من عام ٧٥٠ - حتى عام ١٢٥٨، وتم الابحاء بان العراق بقيادة حزب البعث قادر على العودة لامجاد الماضي التليد، وتمت الاشارة الى انه كما اسقطت الدولة العباسية، المحسوبة على الفرس، تحاول اسقاط التجربة البعثية في الوقت الحاضر عناصر تمت بصلة للفرس ايضا. بمعنى التعریض بشیعة العراق وتبرير استبعادهم وتهميشهم من مراكز السلطة الأساسية. ولم يستطع الخطاب الرسمي العراقي او الخطاب التاريخي الاشارة صراحة الى اسم الشیعة بل استبعض عن ذلك بذكر الشعوبين، وهم العناصر الفارسية التي حملت تعمة اسقاط الدولة العباسية بالعمل من الداخل، وبذلك ارسل النظام رسالة خفية الى السنة العرب مفادها شیعة العراق انسان لا يمكن الوثوق بهم البتة وهم في كل الاحوال عناصر مخربة وهدامية كانوا كذلك في العصر العباسى وسيبقون يحملون هذه الصفة حتى الوقت

بالذكر، وعلى نحو مستمر، بأن للطرف التي تم تهيئتها تراث استند على محاولة اضعاف التجربة التاريخية لممثلي النخبة الحاكمة. أي (الرسالة التاريخية لlama) بمعنى احاطة موقف أولئك الذين همروا بنوع من الشك الذي يمكن لقرون طوال خلت. وأما الوسيلة الثانية فتقوم على تدخل السلطة في رسم نظرية معيّنة سليلة وذات موقف مسيء تجاه عادات وتقاليد وممارسات الجماعات التي تسعى إلى تهيئتها كان يتم الادعاء بأن ممارسات هذه الجماعات ممارسات رجعية، وتتناقض بشكل تام مع مقتضيات الحداثة والعصريّة وبالتالي ينفي أن تتلاشى وتختفي من الحياة اليومية للمجتمع، وأن تقتصر الطقوس التي قد تمارس في المواسم والاحتفالات الدينية، وأن لا يكون لها أي تأثير في الحياة الثقافية والفكرية التي يعيشها المجتمع، والذي يفترض أن يوجه بثقافة النخبة الحاكمة. وأما الوسيلة الثالثة فتستند على قيام الدولة بتقليص، أو حتى إزالة أي آثار فكرية مكتوبة أو شفوية تمت بصلة للفئات التي تم تهيئتها، ولا سيما إذا ما كانت هذه الأفكار ذات محتويات إيجابية عظيمة القيمة ولها آثار قيمة على الفكر الإنساني وبإمكانها أن تزيل الصورة القائمة التي يحاول النظام القائم غرسها وتعميمها بشان النظرة إلى الفئات المهمشة. وبطبيعة الحال تنمو في ظل الانظمة التي تسعى إلى إعادة كتابة

شاملة للمواطن العراقي وكانت هذه النخب تحاول من خلال إبراز ذاكرة جماعية شاملة إعادة الطرورات والمثل التي تؤمن بها وليس ما يؤمن به الشعب حقيقة. وأضحت النخب السياسية، والثقافية، تقرأ التاريخ وفقاً لقناعاتها الفكرية ولما تؤمن بأنه يشكل جزءاً من اصالتها القومية. بمعنى أخو كانت النخب القائمة تعيد رواية التاريخ من أجل تبرير المواقف السياسية التي تتبعها هي في الوقت الحاضر، وتغزو، كما كان الأمر مع تفسيرها لأحداث الماضي، مجمل ماسي وصراعات الحاضر إلى عناصر أجنبية أو دخلة عملت على عرقلة المشروع الحضاري العربي الإسلامي. وبالطبع كانت مثل هذه العناصر، في العراق، جزءاً أساسياً ومكوناً رئيساً من مكونات الشعب العراقي. ولا بد من الإشارة إلى قيام الدولة باستخدام العنصر الثقافي أو الأساطير الثقافية التي تمنح وجودها وممارساتها للسلطة نوعاً من الشوعية لا يقل في أحيان كثيرة عن استخدامها لعنصر القوة والإرغام. فتسبيس الذاكرة التاريخية يدفع بالفئات المهيمنة إلى محاولة تكريس وإدامه هيمنتها وسطوتها على شؤون الحكم في حين يبعد، وعلى نحو دائم، الأعداء المعلين أو المحتملين لهذه النخب عن ممارسة أي دور في الحياة السياسية والثقافية. ولا بد من الإشارة إلى أن عملية التهئيش هذه تتخذ في أحيان كثيرة ثلاث أشكال أساسية: الأولى تتجلى

الإيجابي مع الثقافات الأخرى وساهمت بتشظية أو تجزئة روح المواطنـة الجامعـة. كما كرسـت هذه الـآليـات من روح ابـتعـاد الفـنـاتـ الحـاكـمـةـ عنـ الثـقـافـاتـ الفـرعـيـةـ التـيـ نـمـتـهـاـ الفـنـاتـ المـهـمـشـةـ والـمسـحـوـقـةـ إـذـ تمـ،ـ فـيـ أـحـيـانـ كـثـيرـةـ،ـ النـظـرـ إـلـىـ هـذـهـ الفـنـاتـ بـكـونـهـاـ حـامـلـةـ لـفـكـارـ وـمـثـلـ تـنـاقـضـ بـشـكـلـ جـذـريـ مـعـ قـيمـ الـحـدـاثـةـ وـالـعـصـرـنـةـ وـبـالـتـالـيـ لـمـ يـمـكـنـ انـ تـدـفـعـ بـالـرـسـالـةـ التـارـيـخـيـ لـلـامـةـ إـلـىـ اـمـامـ،ـ كـمـاـ انـ الـارـتـيـاطـ بـفـكـارـ وـعـقـائـدـ هـذـهـ الجـمـاعـاتـ مـنـ شـانـهـ انـ يـجـرـ الـبـلـادـ إـلـىـ مـوـاـقـعـ لـاـنـتـنـاسـبـ مـعـ الـمـكـانـةـ التـيـ يـفـرـضـ انـ تـنـصـلـ إـلـيـهاـ مـنـ السـمـوـ وـالـعـظـمـةـ وـالـدـورـ التـارـيـخـيـ.ـ وـلـابـدـ مـنـ القـولـ انـ سـيـاسـةـ تـهـمـيـشـ فـنـاتـ كـبـيرـةـ مـنـ الـشـعـبـ مـنـ شـانـهـ انـ تـؤـديـ إـلـىـ تـنـافـرـ الـهـوـيـةـ الـجـمـعـيـةـ وـتـشـطـيـهـاـ وـوـقـوفـ فـنـاتـ الـشـعـبـ بـمـوـقـفـ الشـكـ وـالـرـيـبـةـ تـجـاهـ بـعـضـهـمـ بـعـضـ وـأـتـهـامـ بـعـضـ الـعـنـاصـرـ وـالـفـنـاتـ بـالـعـمـالـةـ وـالـخـيـانـةـ لـاـطـرـافـ خـارـجـيـةـ.

وبـالمـقـابـلـ فـانـ التـركـيزـ عـلـىـ مـبـداـ تـسيـسـ الـهـوـيـةـ التـارـيـخـيـةـ الـجـمـعـيـةـ يـعـزـزـ مـنـ التـضـامـنـ وـالتـلاـحمـ الـمـوجـودـ بـيـنـ الـفـنـاتـ الـحـاكـمـةـ إـذـ تـصـبـحـ الـاسـاطـيرـ التـارـيـخـيـةـ الـمـشـكـلـةـ لـلـهـوـيـةـ الـجـمـعـيـةـ بـمـثـابةـ اـسـترـاتـيـجـيـةـ تـسـتـدـ عـلـيـهـاـ النـخـبـةـ الـحـاكـمـةـ فـيـ تـرـصـينـ وـتـعزـيزـ صـفـوفـهـاـ بـشـكـلـ يـمـدـدـ مـنـ الـقـلـمـةـ إـلـىـ الـقـاعـدةـ،ـ أـيـ بـشـكـلـ عـامـودـيـ وـلـيـسـ بـشـكـلـ اـفـقـيـ،ـ إـذـ لـاـ يـمـكـنـهـاـ إـنـ تـنـفـحـ عـلـىـ الـأـطـرـافـ وـالـفـنـاتـ الـأـخـرـىـ فـيـ الـمـجـنـعـ.ـ وـكـلـمـاـ بـقـيـتـ لـمـدةـ

الـذاـكـرـةـ الـجـمـعـيـةـ التـارـيـخـيـةـ لـبـلـانـهاـ مشـاعـرـ الشـكـ وـالـخـوفـ تـجـاهـ أـيـ جـهـةـ اـجـنبـيـةـ وـعـدـمـ التـقـةـ بـالـأـخـرـ وـفـقـدانـ التـوـاـصـلـ مـعـ مـكـوـنـاتـ الشـعـبـ الـتـيـ تـخـتـلـفـ مـعـ تـوـجـهـاتـ النـخـبـةـ الـحـاكـمـةـ فـيـ الـأـصـولـ الـفـكـرـيـةـ اوـ الـأـثـيـةـ.ـ وـلـقـدـ عـدـتـ سـلـطـةـ الـبـعـثـ فـيـ الـعـرـاقـ إـلـىـ تـعـزيـزـ مشـاعـرـ تـارـيـخـيـةـ تـعودـ إـلـىـ حـقـبـ تـارـيـخـيـةـ سـحـيقـةـ فـيـ الـقـدـمـ إـبـرـزـتـ الـعـرـاقـ وـكـانـهـ كـانـ،ـ وـعـلـىـ الدـوـامـ،ـ ضـحـيـةـ لـمـؤـمـرـاتـ الـدـاخـلـيـةـ وـالـخـارـجـيـةـ.ـ وـقـدـ دـفـعـتـ هـذـهـ النـظـرـةـ بـاتـجـاهـ تـحـقـيقـ جـملـةـ مـنـ الـعـوـامـلـ كـانـتـ الـأـولـىـ تـسـتـدـ عـلـىـ تـضـخـيمـ الدـورـ الـذـيـ قـامـ بـهـ اـعـدـاءـ الـعـرـاقـ سـوـاءـ فـيـ الـدـاخـلـ اوـ الـخـارـجـ.ـ فـاماـ الـذـيـنـ فـيـ الـدـاخـلـ فـكـانـواـ مـتـأـمـرـينـ،ـ عـلـىـ الـدـرـامـ،ـ عـلـىـ وـحدـةـ الـدـولـةـ كـنـتـيـجـةـ حـتـمـيـةـ لـاـخـتـلـافـهـمـ مـعـ اـرـثـهـاـ التـارـيـخـيـ الـعـظـيـمـ وـرـسـالـتـهـاـ الـخـالـدـةـ.ـ وـاماـ الـاعـدـاءـ الـخـارـجـيـونـ فـكـانـواـ يـسـعـونـ جـاهـدـيـنـ إـلـىـ اـحـتـلـالـ الـبـلـادـ وـالـسـيـطـرـةـ عـلـىـ مـوـارـدـهـاـ الـطـبـيـعـيـةـ وـثـرـوـاتـهـاـ.ـ وـاماـ الـهـدـفـ الـثـانـيـ الـذـيـ كـانـتـ تـسـعـيـ مـنـ وـرـائـهـ النـخـبـةـ الـحـاكـمـةـ إـلـىـ اـشـاعـةـ نـقـافـةـ الـخـوفـ وـالـكـراـهـيـةـ فـقـدـ كـانـ تـضـخـيمـ مـفـهـومـ الـمـؤـامـرـةـ وـاعـطـاءـ رـمـزـ التـضـحـيـةـ الـذـيـ مـثـلـهـ حـضـارـةـ الـبـلـادـ قـدـ مـنـعـ مـنـ قـصـرـ مـفـهـومـ الـمـواـطـنـةـ عـلـىـ فـنـاتـ مـحـدـدـةـ دـاخـلـ الـمـجـمـعـ مـاـ عـطـلـ،ـ بـشـكـلـ اوـ بـاـخـرـ،ـ رـوـحـ الـمـشـارـكـةـ بـيـنـ فـنـاتـ الـمـجـمـعـ الـمـتـعـدـدـةـ بـلـ قـمـعـهـاـ وـازـهـاـ بـنـحـوـ ماـ.ـ بـمـعـنـىـ اـشـاعـةـ نـقـافـةـ الـخـوفـ وـكـراـهـيـةـ الـاجـانـبـ قـدـ عـرـقلـتـ نـمـوـ روـحـ الـقـاعـلـ

التاريخية التي انشأها النظام البعثي بابدولوجية الحزب الغامضة ولاسيما فيما يتعلق بالدعوة الى الوحدة العربية والتي لم تعد هدفا اساسيا من اهداف الحزب مع استحواذ البُعث التكريتي على مقاليد السلطة، اي منذ عام ١٩٦٨، وركز البُعث على الماضي الذهني لlama العربية والمتجسد بالحقبة العباسية والنور الذي لعبه العراق وبغداد في تلك المرحلة. وكان البُعث مدراكاً للفوائد التي تقدمها الوحدة العربية لصالح القاعدة السنوية الضيقية الموجودة في العراق اذ كانت تنهضهم نوعاً من الاطمئنان بأنهم وان كانوا يشكلون أقلية في العراق فلنهم وفي ظل الدولة العربية الواحدة والتي سوف يقيمها حزب البُعث سوف يشكلون الغالبية السكانية وسوف يبقى الشيعة والعناصر الأخرى يمثلون أقلية مهمشة مغلوبة على أمرها.

ولقد منحت الذاكرة التاريخية الجديدة التي انشأها حزب البُعث القاعدة الاجتماعية التي تدعم السلطة وتؤازرها بعداً تعبيواً مستندًا على التزام كامل بالهرمية القيادية التي يمثلها الحزب الحاكم. وقد لا يمكن التأكيد والجزم بأن جميع اعضاء الحزب قد تمسكوا بالاساطير والسرديات التاريخية التي قدمتها الحلة الحزب الابدولوجية فان الجميع قد تظاهر بالتمسك بها والالتزام بحرفيتها وبدت وكأنها التزام تام بالمصير التاريخي الذي بدا عليه العراق، وكرست هذه

اطول في السلطة كلما زاد هذا التلاحم في صفوفها. ومن الطبيعى عندما تستحوذ النخبة الحاكمة على مقاليد السلطة والتاثير في المجتمع تحاول، بغضى الطرق، تبرير هذا الاستحواذ والاستئثار وتهجيش الآخرين باطر ومبررات ايدولوجية، اذ ان المحظى الابدولوجي والفكري قد يكون اكثراً مدعاه للتلاحم والترابط من العلاقات الإثنية او الروابط المذهبية اذ يتم تبرير افعال السلطة بمنحي الصواب ورسم افعال المعارضة، او الاتجاهات التي تتحو منحي معارضها، بكونها تجسيداً لكل ما هو شرير وخطير ومقتت. وفي الانموذج العراقي يمكن ان نلاحظ نشوء نوع من الانسجام والتلاحم بين الاقلية السنوية في البلاد وابدولوجية حزب البُعث والتي جاءت لتكمل واقع تهجيش الأغلبية السكانية في البلاد والفتات الآخرى ولكن هذه المرة ليس على اسس دينية مذهبية بل وفقاً لاعتبارات قومية ايدولوجية تستند على ضرورة استبعاد الفنات والعنابر التي تشكل مذهبيتها الدينية او انتقامتها القومي تناقضها مع الرسالة التاريخية لlama. وبطبيعة الحال لم يكن العراق من الفنات التي كان هناك استعداد بهذه السمات سوى الشيعة والاكراد. ولقد استند نظام البُعث في العراق وهو ينشئ اساطيره التاريخية على تحالف قبلي استند على قبائل ما يعرف بالمثلث السنى أي المناطق التي تشمل تكريت الرمادي والموصل. ولقد غلت الذاكرة

المهمة السياسية ويتمنى من الوصول إلى منصب اقتصادي أو منصب إداري ذو مستوى عالٍ فان عليه القبول، ولو جزئياً، بالاترورحات الفكرية التي تقدمها إيديولوجية الدولة وإن يتخلى عن الانشداد أو الترويج لإيديولوجيته واعتقاداته الخاصة لكي يصبح من الأجزاء أو الأطراف المرتبطة بالظلم القائم. ويعدم النظام، بطبيعة الحال، إلى تكريس ثقافته وأساطيره الفكرية بحيث تغدو جزءاً من الحياة اليومية للشعب ويصبح من الصعب على الفئات التي تشعر بالتهميش والاستبعاد تمسكها بامورها اليومية بدون أن تبدي التزاماً بإيديولوجية النظام وطروحاته الفكرية فيما يخص التاريخ والهوية الجمعية للشعب.

ولقد رعت الدولة في العراق فيما معينا للتاريخ يقوم على تهميش واضعاف الدور الذي يفترض ان تقوم به الجماعات التي تمارس نشاطاً وتأثيراً خارج نطاق الدولة أي قلصت امكانية لانشاء ما سيمكن تسميه بمجتمع مدنى او اوليات لمثل هذا المجتمع في العراق. واحتاط النظام موقف الأغلبية العربية من غير السنة، أي ابناء المذهب الشيعي، بهالة من الشك والارتياح. وتناقض النظام في تكريسه موقف الشك تجاه الشيعة مع طروحاته الفكرية التي كانت متباينة في حقبة الخمسينيات وكانت بشكل عام هي الموقف السائد لدى الكثير من التيارات القومية والعلمانية وهي عزو

الإيديولوجية والاساطير التاريخية المرتبطة بها أسلوب الحزب الواحد ورفض أي شكل من اشكال التعديدة السياسية أو التروع الثقافي. وكان الجهاز الحاكم يوحى، وبشكل مستمر، بوجود مؤمرات يحيكها أولئك الذين يحاولون الاطاحة بالتجربة الريادية للحزب ويسعون لنقويض الدور الذي تقوم به الفئات الاجتماعية المساعدة للفترة الحاكمة وازاحتها عن المكاسب الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي حصلت عليها جراء اصطدامها مع النظام القائم. وبالطبع كان مثل هذا الابحاء قد اعطى تبريراً لقيام اجهزة امنية قمعية مرتبطة بالنظام ومستندة على القاعدة الاجتماعية التي تدعم حكمه قادر على دحر اعدائه الملعنيين او المستترین بدون شفقة او رحمة.

وتساهم الذكرة التاريخية في إيجاد منفذًا للعلاقة والتفاعل بين الجهاز الحاكم وبين الفئات والنخب الدينية والسياسية والاقتصادية التي تقع دائرة نفوذها وعملها خارج نطاق الدولة وذلك من خلال وسائل وآليات عديدة قد تبدي هذه الفئات رد فعل يليبي تجاه الطرورحات الفكرية والإيديولوجية التي يقدمها الجهاز الحاكم مقارنة بالفئات التي تشكل داعماً تقليدياً له. وقد تدرك هذه الفئات، المهمة سياسياً، ان عليها عدم الاشارة او التذكير بماضيها او سرداتها التاريخية والتي تشكل تناقضات مع ما تؤمن به النخبة الحاكمة. وعندما يتحالف الحظ احد افراد الجماعات

اغنى ارث حضاري بين دول المحتلة ولا تجاريه في ذلك سوى مصر، وصاغ النظام ومتقوه اسطورة انحدار العراقيين القدمى من العرق السامى وهو الامر الذى يجعلهم على صلة مع العرب وذلك ينعدم اي تناقض بين التراث العربى الاسلامي والارث الحضاري الذى سبق ظهور الاسلام ودخول العرب المسلمين الى العراق. ولابد من الاشارة الى الاختلاف فى الدور وفي الشمولية، ففي الوقت الذى تعتمد فيه الذاكرة التاريخية الموجودة لدى أي بلد ديمقراطي على تعزيز مبدأ المشاركة في الداخل وعدم لشارة العادات والمحن والاحقاد التاريخية القديمة على مستوى علاقتها مع الدول الأخرى، تعتمد الذاكرة التاريخية في الانظمة الشمولية إلى صنع حاجز بين أفراد الشعب وبين الشعب ومحبيه الاقليمي وتسود نظرية الشك والعداء تجاه كل من هو من خارج (الوطن) وهو الامر الذي يمنع السلطة القائمة منيات غير محدودة من السيطرة على زمام الامور في الداخل. ولقد ظل النظام القائم في العراق يوحي بالعداء التاريخي الذي تکنه دول مثل ايران واسرائيل ومن ثم سوريا للعراق، واصبحت العمالة لايران بمثابة النهاية الجاهزة للعراقيين من الشيعة وابناء الاقليات القومية الأخرى، كما اصبحت تهمة العمالة للغرب وخدمة المصالح الرأسمالية الغربية من اجل تحطيم التجربة العراقية، واما سوريا فقد

الظاهر الطائفية والتفرقة الناجمة عنها اساليبقوى الاستعماريه في تجزئه وتشتيت قوى الشعب والمجتمع (فرق تسد)، وما حصل بعد تسلم البعث للحكم عام ١٩٦٨ انتهاج اساليب التفرقة بين مكونات الشعب وإثارة مشاعر الشك والعداء بين العرب، شيعة وسنة، وبين العرب والإكراد واتهام الأطراف التي تتنمي إلى مذهب الأغلبية بالرجعية والعملة لقوى أجنبية.

لقد ارسى النظام ذاكرة تاريخية احاطت مواقف الدول العربية الأخرى بنوع من الشك وكانت مكرسة لخدمة الاهداف الاقليمية للعراق. وروجت الـ الدعاية الاعلامية العراقية فكرة مفادها ان ليست هنالك دولة عربية قادرة على خدمة الاهداف القومية الرسالية لامامة العربية كما يفعل العراق. وتم التركيز على التاريخ العباسي باعتباره العصر الذهبي للعرب وكان الدليل الناصح على مركزية دور العراق في الحضارة العربية والاسلامية. ولم يغفل النظام بطبيعة الحال، الارث التاريخي الذي تمنع به العراق في العصور السحيقة التي سبقت ظهور الاسلام والعرب على مسرح التاريخ، ففتحت اعادة بناء مدينة بابل القديمة ولكن على نحو اضاء معالمها التاريخية وجرى تسمية احدى الالویة التابعة للحرمس الجمهوري باسم حمورابي الملك البالبي الذي وضع اول تشريعات قانونية ذات محتوى ينص على العدل والمساواة. ومن المعروف اصلا ان العراق يمتلك

التي شهدت انهيار الدولة أي بين عامي ١٩٧٩-١٩٩٠ وما في الباب السابع فقد تناول فهم الذاكرة التاريخية من لدن قوى المعارضة العراقية، وأما في الباب الثامن فقد عالج ذاكرة الدولة ومدى اختلافها وتناقضها مع الذاكرة التي يحتفظ بها المواطنون العراقيون ويطرح تساؤلاً عن الذاكرة التي ستكون لها الغلبة في المستقبل القريب. ويخلص المؤلف إلى أن الدولة ولاسيما في حالة بلد ثرثري مثل العراق كانت قادرة على فرض نمط معين من انماط التجانس السياسي والاجتماعي وأن هذا النمط قد تم فرضه بالقوة مستقيمة من تسيير أدوات واجهزه النظام لهذه الغاية والتي يكتب لها بطبيعة الحال النجاح إذا تم فرض سردية تاريخية تتناقض مع ما يؤمن به المجتمع. ورغم أن سلطة البعث سعت جاهدة إلى ترسيخ انماط ثقافية كانت تأمل من ورائها كسب ولاء الأطراف والفتات المرتبط بها عقائدياً ومن ثم مناطقها فانها بالمحصلة العامة ادت إلى غياب أي نوع من انواع الثقافة الجمعية التي يمكن ان تشد المواطنين العراقيين إلى بعضهم البعض. ولقد قدم انموذج البعث الثقافي حالة هجينه كانت متناقضة مع الطروحات والرؤى التي امن بها وعمل من اجلها جمهور كبير من المثقفين العراقيين ولاسيما خلال الحقبة الجمهورية الأولى ١٩٥٨-١٩٦٣ والتي كانت تلقى زخماً كبيراً من التأييد من لدن قطاعات واسعة

اصبحت راعية للقوى التي تحاول تدمير المصير العربي الواحد وتقويض أي محاولة لانشاء تجربة وحدوية عربية.

لقد تناول المؤلف من خلال ثمان محاور البابيات الأولى لتأسيس ذاكرة تاريخية عراقية: إذ تناول في الباب الأول كيفية نشوء الطبقة المثقفة في العراق الحديث ولاسيما خلال عقد العشرينات من القرن المنصرم وارسائهما لأولى اشكال الذاكرة التاريخية للدولة التي انشئت حديثاً، في حين تناول في الباب الثاني كيفية انهيار تجربة الحكم الملكي وبذایات ظهور الفكر القومي في العراق وبدایات تشكل الذاكرة التاريخية على اساس طروحات القومية العربية. وتناول الباب الثالث دور الذاكرة التاريخية والذكية المثقفة في ارساء معلم غير مكتملة في مراحل الأربعينات والخمسينات لما يمكن ان نسميه بمجتمع مدنى ناشيء في العراق. وتناول في الباب الرابع ثورة الرابع عشر من تموز والصراع الذي دار في خضمها وما دار في اعقابها من نقاش حول تشكل الذاكرة التاريخية العراقية بين دعاة الوطنية العراقية والقومية العربية. وأما في الباب الخامس فقد تناول الذاكرة التاريخية في الحقبة التي زاد فيها دور الدولة في العراق بشكل كبير أي في الحقبة الممتدة بين عامي ١٩٦٨-١٩٧٩ في حين عالج في الباب السادس الذاكرة التاريخية في المرحلة

السياسي الذي يصوغ مقولاته الرئيسية من خلال هذه الذكرة والهوية. إن ترسیخ نظام البعث لهوية مستأنكية جامدة مشبعة بمقولات الكره ومقصرة في تسبیب عوامل الانهيار بداعي التامر الخارجي من شأنها أن توقف عجلة التحليل السياسي الأكثر علمية ونضجا لمعالجة الواقع التي عاشها ويعيشها العراق الحديث. إن من شأن التركيز على مفاهيم كالذاكرة السياسية والذكرة على مفاهيم كالذاكرة السياسية ان تجلب الانتباه نحو مواضع كال المؤسسة السياسية واتباع اساليب التحليل الجزئي لسلسلة من الظواهر السياسية والتركيز على السلوك الفردي في فهم اوليات الذاكرة التاريخية وكيفية تكوين الفرد لذاكرة و هوية تتراقص ان لم تكن تتف بالضد من الهوية التي تسعى الدولة الى ترسیخها. كذلك تعمد الذاكرة التاريخية الى فهم وتحليل اساليب الهيمنة السياسية وتعريه اشكال الوعي السياسي الزائف التي تعمد الانظمة الشمولية الى ترسیخها، وبالتالي اتباع اساليب ومناهج اكثر علمية وافتتاحا في فهم الظاهرة السياسية وكذلك تقدم الذاكرة التاريخية معطيات بيانية حول الشكل الذي يتم من خلاله بناء الدولة الامنة والشكل الذي تتطور به هيكلية الدولة والياتها. ولعلنا نستخلص من دراسة الحالة العراقية نتيجة اساسية مفادها ان النظام الذي يحاول ارساء نموذج ثقافي وفكري احادي ليتجاوز الاختلافات المذهبية والاثنية الموجودة في بلاده

كبيرة من الشعب. وتقع على عائق النخب الحاكمة مسؤولية افتراق مواطنיהם بان سير الحكم وادائه تصب بالمحصلة في مصلحة المحكومين، كما ان صيغة المواطنة وواجباتها تتمثل مع المصالح العليا التي تسعى الدولة لتحقيقها. وما حصل في العراق من تشوه للهوية الجماعية ولذاكرة التاريخية ومحاولة استبدالها بهوية وذاكرة اخرى، يدفع العراقيين الى الاعيان بان الحكم الديمقراطي لا يمثل ضرورة اخلاقية فحسب بل هو الطريق الامثل لادارة دفة العلاقة بين الحكم والمحكوم وانجاز مستوى منقى من المشاركة السياسية. ولابد للقوى التي تبني المشروع الديمقراطي في العراق، وهي تنتهي بطبيعة الحال الى اثنين واعراق ومذاهب تشكل النسيج الوطني العراقي، ان تتعلم الكثير من تجربة البعث الفاشلة وان تدرك ان خططا القائل سيكون محاولة الابتعاد عن تقافة الشعب العراقي وقيمته الاصلية. ولعل من سوء الطالع الذي سوف يلازم الحكومات المستقبليه في العراق بعد انهيار نظام البعث يتمثل بطريقية مواجهتها لذاكرة مشوهة ومعقدة صبغت المشهد العراقي بالدم وان تجنب على التساؤل بمقدرات العراق طيلة هذه الحقبة السابقة.

ان المؤلف يخرج بخلاصة اساسية من عمله هذا يتجلى بامانه بالترابط الوثيق بين الذاكرة التاريخية لشعب ما والهوية الجماعية والمجتمع

انما يعمل على ترسیخ هذه الاختلافات بل وتأجيجها الى صراعات دموية تدفع بالوطن الى الهاوية. ومن شأن منهجهة الذاكرة التاريخية ان يجعلنا ندرك ابعادا في الثقافة والسياسة والاقتصاد السياسي وتحليل الحوادث التاريخية وفهم اساليب التغيير السياسي على نحو يتافق مع اساليبنا ومناهجنا التقليدية.

ولعل اهمية هذا الكتاب تتجلى في تقديم رؤى اكثر شمولاً وعمقاً لما جرى في العراق منذ تشكيل الدولة الحديثة فيه على صعيد السياسة والثقافة والتئسسة السياسية الامر الذي جعل منه مرجعاً لا غنى عنه لطلبة التاريخ والعلوم الاجتماعية والسياسية والمألف يجمع، الى جانب الخبرة الاكاديمية والفنون في استخدام المنهجيات الحديثة في فهم الظواهر السياسية، معرفة عميقة بواقع المجتمع العراقي مستندة على مشاهدة ميدانية وتعبر عن قرب لمختلف جوانب الحياة في بلاد النهرين الخالدين.